نشوء القومية الطورانية

من المعلوم ان الدولة العثمانية عندما فتحت القسطنطينية ثم توغلت في قارة أوروبا ارتعبت الدول الأوروبية من ذلك كثيراً ونظمت حملات صليبية عديدة لاخراج المسلمين من أوروبا، ولأمد طويل لم تفلح في ذلك ولكن عندما أصاب الوهن الدولة العثمانية وبدأ ظلها يتقلص ويتراجع عن أوروبا ادامت الدول الأوروبية زخم ضغطها عليها لاخراجها نهائياً منها. وفي خلال مئات السنين من الصراع وقعت العشرات من الحروب والمعارك بين الطرفين مما ولّد عداءً عميقاً بينهما، واتخذ هذا العداء في الجانب الأوروبي عداءً صريحاً للدين الاسلامي ولنبي هذا الدين ولكتابه، ولم يكن من الممكن ان يتولد العداء نفسه في جانب الدولة العثمانية ضد الدين النصراني ولا ضد نبيه ولا ضد كتابه لان الدين الاسلامي يمنع ذلك ويعدّ عيسى عليه السلام من كرام الأنبياء والرسل.

بدءً من القرن السادس عشر بدأت حملة أوربية منظمة لدراسة أحوال الدولة العثمانية وأحوال الممالك الواقعة تحت حكمها، وأحوال المسلمين والدين الإسلامي.. دراسة جغرافيتها، لغاتها ولهجاتها المحلية، أديانها ومذاهبها، تاريخها... الخ كما بدأت الارساليات التبشيرية تترى على هذه الممالك

كانت أمثال هذه الدراسات العلمية ضرورية لها على قاعدة:"اعرف عدوك"، وكان واضحاً ان أقوى عامل وعنصر في اسناد الدولة العثمانية حتى في أضعف أدوارها هو عامل الدين الاسلامي. وقد قلقت الدول الأوربية كثيراً عندما شاهدت السلطان عبد الحميد الثاني يرفع

راية سياسة الجامعة الاسلامية، وانضمت الحركة الصهيونية بكل ما لديها من قوة ونفوذ في عالم المال والصحافة والسياسة الى مساعي هدم الدولة العثمانية، وهدم حكم السلطان عبد الحميد خاصة بعد رفضه كل عروض الحركة الصهيونية وكل إغراءاتها في السماح لليهود بالاستيطان في فلسطين، لذا كان يجب التخلص من السلطان ومن سياسة الجامعة الاسلامية.

اما السلطان فقد تمت تهيئة انقلاب ضده بواسطة جماعة الاتحاد والترقي الذين تربوا في أحضان المحافل الماسونية في سلانيك، واما سياسة الجامعة الاسلامية فقد كان لابد من ايجاد البديل لها.

بديل يرضي الغرور وينفذ الى القلوب مستغلاً الضعف الانساني وحاجته الى الفخر والمباهاة.

وضعوا الفكرة القومية التركية -أي العنصرية الطورانية- مكان فكرة -الأمة- في الاسلام. فكرة الأمة تجمع وتؤلف..ترصّ وتوحّد، وفكرة القومية الطورانية تتعالى وتفرق وتشتت.. وكان هذا هو المطلوب بالضبط للدولة العثمانية، وبينما كانت الجامعة العثمانية والجامعة الاسلامية تؤلف وتوحد كل العناصر والقوميات الاسلامية وغير الاسلامية، كانت الفكرة الطورانية أكبر عامل هدم لوحدة الصف واكبر داعية للقوميات الأخرى لنـزع ولائها عن الدولة والثورة عليها باسم قوميتها هي، أي أصبحت الفكرة الطورانية هي الفتيل الذي أشعل نار القوميات الأخرى في الدولة العثمانية بعد مجيء الاتحاد والترقي الى الحكم بمساعدة خارجية، بل بمؤامرة يهودية صريحة لم تعد أبداً من أسرار التاريخ.

ولم تكن من الصعوبة لدى الدول الأوروبية بامكانياتها الكبيرة ان تنصب فخاً ثقافياً وفكرياً للدولة العثمانية بجانب الفخاخ السياسية التي كانت ماهرة في إعدادها. فقد تناول علماء أوروبيون تاريخ المغول وقبائل الهون وبحثوا في مزايا اللغة التركية وأمجاد التاريخ التركي القديم قبل الاسلام، وبالغوا في ذلك مبالغة كبيرة، فمن هؤلاء العلماء "فون لوفوك" و "ماكس موللر" من ألمانيا و "دي جوينيز" و"ليون كهون" من فرنسا و "آرثر لملي دافيد" من انكلترة و-"لبروفسور غدولاوسكي" من روسيا، وكانت النتيجة ان الاتراك بدأوا ينظرون الى ان التتار والمغول والاتراك كلهم أمة واحدة، وبدأوا يعدّون السومريين والحيثيين من الأتراك أيضاً، أي تم النفخ في المفاخر القومية للأتراك ودفعوا الى المباهاة

بتاريخهم القومي السابق للاسلام، واصبحت مزايا الحضارة السومرية والحيثية ضمن مفاخرهم القومية، وهذا ما دعا أحد دعاة الطورانية وهو "أحمد آغاييف" الى القول في اجتماع سري عقد في بيت "عزيز المصري" لازالة سوء الفهم بين العناصر العثمانية آنذاك:"تأكدوا ان هؤلاء السفلة الذين تسمونهم عرباً أو أرناؤوطاً لا يعدون شيئا، ولا يوجد سوى العنصر التركي الذي سيحكم آسيا، لان عدد نفوسه يزيد عن خمسمائة مليون.. يريد بذلك ان الصين طورانية"[1].

".. وأثاروا هم نعرة القومية بالحديث عن القومية الطورانية.. ضد مَن؟ ضد رعاياهم.... والنتيجة الوحيدة هي التفتيت، والمفروض ان الحركة القومية تنشأ ضد قومية كبيرة، وتضطهد القومية التي تمثلها الحركة الناشئة.. أما لو رفعت القومية الكبرى أو المسيطرة لواء القومية فهي تحمل لواء تدميرها بنفسها، ولم يحدث في التاريخ ان أثار الحاكمون حرب القوميات إلا ما حدث في حالة الترك".[2]

ولكي نتأكد من ماهية القومية الطورانية يكفي ان نستعرض باختصار الدعاة الذين حملوا لواءها.. فمن كان دعاتها؟.

كان أبرز دعاتها هم.

تكين آلب

وضياء كوك آلب

وأحمد آغاييف

ويوسف أقچورة.

اما "تكين آلب" فهو يهودي.... نعم يهودي... واسمه الأصلي هو "موئيز كوهين". وليس اسم "تكين آلب" الذي اتخذه فيما بعد إلاّ اسماً تركيا مستعاراً للضحك على الذقون وخديعة البسطاء.. أو الاسم الفني - كأسماء نجوم السينما - في لعبة الامم ومكايد السياسة..

وننقل هنا ملخص مقاطع رئيسة مما جاء في مقالة الدكتور محمد حرب -موئيز كوهين. يهودي عثماني من قادة الطورانية- التي نشرها في مجلة -العربي- الكويتية.

يقول "نيازي بركس" الاستاذ في جامعة ماكجل بكندا في كتابه -المعاصرة في تركيا-.

"ان لليهود الاوروبيين واليهود المحليين -في الدولة العثمانية- في القرنين التاسع عشر والعشرين دوراً ضخماً في ارساء تيار القومية الطورانية فالعلماء اليهود في الغرب مثل لوملي دافيد وليون كاهون وارمينوس فالبري تصدروا للكتابة في أصول الفكرة الطورانية، كما ان اليهود المحليين -في الدولة العثمانية- مثل كراسسو -قراصو- وموئيز كوهين وابرهام غالاتني كان لهم ضلع في جمعية الاتحاد والترقي، وبمجرد ان نجحت هذه الجمعية في الاطاحة بحكم عبد الحميد ومن ثم الاستيلاء على السلطة تقدم الصهاينة الى الاتحاديين برغبتهم في ان تعترف الجمعية بفلسطين وطناً قومياً لليهود".

ولكي نعرف مدى خطورة هذا اليهودي يكفي ان نقول ان "رينيه يينو" وصفه بانه :"هو خالق الفكرة القومية الطورانية وان كتابه "طوران" هو الكتاب المقدس للسياسة الطورانية".

والجدير بالذكر هنا ان السير ونستون تشرشل كتب في مذكراته عن الحرب العالمية الاولى يقول ان مرجعه الوحيد في دراسة موقف الدولة العثمانية ومعرفته هو كتاب كوهين الذي نشره عام 1914 بعنوان -Turkizmus und Panturkizmus".

"ولد موئيز كوهين في سلانيك عام 1883م وتخرج في مدرسة الحقوق. وبعد اعلان المشروطية الثانية ومجئ الاتحاديين الى السلطة بدأ يكتب في جريدة -روملي- وجريدة -اتحاد وترقي- اذ كان قد انتسب الى الجمعية عام1905م، ورأس جمعية -تعميم اللغة التركية- كما أصبح عضواً بارزاً في أهم جمعية تركية، وهي -تورك اوجاغي-، كما بدأ بكتابة المقالات في بعض الصحف الأوروبية يعرّف فيها حركة جمعية الاتحاد والترقي، وكان أولها مقالة باللغة الفرنسية في -ميركوردي فرانس- عام 1912 تحت عنوان "الاتراك يبحثون عن روح قومي".

وفي سنة 1946 أصبح موئيز كوهين عضواً في المجلس الأقليمي لحزب الشعب الجمهوري في استانبول. وفي عام 1950 رشحه هذا الحزب عضواً بمجلس الأمة عن استانبول.

"وحتى لا يثير موئيز كوهين حساسية القراء العثمانيين عامة والأتراك المسلمين خاصة، لم يستخدم اسمه الحقيقي في الكتابة إلاّ في كتاب واحد فقط من كتبه التي نشرها بالتركية وبضع مقالات قليلة على وفرة مقالاته وتعددها. لكنه استخدم اسمين مستعارين هما. تكين

ألب ومؤنس ألب، حتى ان الأغلبية العظمى من قرائه كانوا يقرأون له على انه مسلم عربي.

أسهم في التخطيط للسياسة العنصرية الطورانية التي سارت عليها جمعية الاتحاد والترقي وهي السياسة التي اثرت على العلاقات التركية - العربية، خاصة في بلاد الشام.

كتب هذا اليهودي الداعية الأول للطورانية خمسة كتب هي:

١- "ماذا يمكن ان يكسب الأتراك في هذه الحرب العالمية الأولى". والكتاب صدر في استانبول عام 1914، وهو الكتاب الوحيد الذي وضع عليه اسمه الحقيقي.ودعا فيه الأتراك الى توجيه عنايتهم الى "اتحاد الأتراك" في العالم بديلاً عن الوحدة الاسلامية المتمثلة في الجامعة الاسلامية.

يعقب الكاتب التركي "ارطغرل دوزداغ" على هذا الكتاب بقوله :"ان موئيز كوهين وهو يشير الى حضارة تركية جديدة ومستقلة يريد ان تكون هذه الحضارة منفصلة عن دين وثقافة العالم الاسلامي، ومستقلة بمعنى قطع الصلة بين الأتراك وبين الأمم الاسلامية الأخرى".

2- "الطورانية": لم يضع موئيز كوهين اسمه الحقيقي على هذا الكتاب الذي نشره في استانبول عام 1914 وانما وضعه باسم "تكين ألب"، وفي هذا الكتاب يعرّف هذا اليهودي مفهوم القومية التركية الطورانية واهدافها، ونشر باللغات الانكليزية والفرنسية والتركية. "ان طوران أكبر من الأناضول بعشر مرات. ان طوران تعيش لكنها تعيش تحت مخلب الصين وحذاء الروس. طوران أسيرة وحبيسة.. طوران ذليلة ومهضومة.. ان أكبر إذلال للقومية التركية ليتمثل في ترك طوران هكذا. ان الواجب الأول والأقدس لكل تركي يدرك واجبه القومي ان يسرع لنجدتها. انقاذ طوران من التنين الصيني ومخالب النسر الروسي الدامية..".

كان للكتاب تأثير واضح في ضباط الاتحاد والترقي مثل جمال پاشا. وأنورپاشا بالذات الذي اهاجته فكرة الطورانية فترك ميادين القتال الرئيسية في أثناء الحرب العالمية الأولى ووجه - وهو وزير الحربية العثمانية - الجيوش لتحرير منطقة طوران. وكانت النتيجة ان مات بفعل العوامل الطبيعية في شتاء روسيا ثمانون ألف ضابط وجندي عثماني من خيرة

القوات العثمانية.

3- "سياسة التتريك": صدر هذا الكتاب في استانبول عام 1928 وهو عبارة عن-12- مقالاً، وايضاً لم يذكر اسمه الحقيقي في هذا الكتاب، وانما وضع عليه اسمه المستعار -تكين آلب-. وعبر فيه -موئيز كوهين- عن رأيه في مسألة تتريك العناصر غير التركية في الدولة العثمانية، وهي سياسة اتحادية سابقة لتاريخ النشر. ويبحث الكتاب في الموضوعات الآتية. مهمة التتريك - قواعد التتريك - غاية التتريك - وفائدته - من هو التركي - مشكلة الأقليات غير التركية - سياسة العناصر المحدودة - ما هي الأمة يعني الذهنية - تتريك الأسماء - الضمير المشترك - واجب اجهزة الاعلام - جاذبية القومية التركية.

4- "الكمالية" : أصدره في استانبول عام 1936 وصدرت من هذا الكتاب ترجمة فرنسية في باريس عام 1937 بتقديم وتقريظ "الدكتور هيريو" - رئيس البرلمان الفرنسي - وترجمة تشيكية صدرت في براغ بتقديم مدير جامعة براغ.

في هذا الكتاب يقول موئيز كوهين:

"ان الأمة التركية قد انسلخت من شرقيتها لتأخذ طريقها الى الغرب" و "ان الشيء الذي يمثل الكمالية ليس اسطورة كما حدث في ماضي الفكرة القومية، بل يمثلها انسان من لحم وعظام يمتلك ديناميكية وحيوية لا نظير لهما، ليس بانسان فقط بل انه فوق الانسان -يقصد أتاتورك- و "ان الكمالية حركة مستقلة، لا علاقة لها بالحركة القومية التي بدأت من قبل، ذلك لأن أول إجراء اتخذته الكمالية كان. الابتعاد عن الدين" و "اما الكمالية فقد وجهت حملتها الأولى ضد حكم الدين، وقد انهارت السلطة الدينية الغاشمة بضربة واحدة وجهها اليها أتاتورك. ان رب الكمالية الذي عبدته منذ بدايتها هو القومية".

وتحت عنوان "فلتسقط حكومة الشريعة"يقول:

"كان الشعب التركي مجبراً على العيش تحت تأثير القوانين الدينية والشرعية الموجودة في صحراء بلاد العرب، وهذا شيء يبعد عن الثقافة الغربية" و "ومن نافلة القول ان العمامة أخطر من الطربوش، فالعمامة كانت رمزاً. كانت العمامة هي الشريعة نفسها".

5- " الروح التركية": صدر في استانبول عام 1944 ويقصد من هذا الكتاب -كما يقول هو - توضيح الصفات الأخلاقية والمعنوية لتلك الروح التركية التي تمكنت من خلق العديد

من الامبراطوريات العظيمة.

ويقول "حلمي ضياء اولكن" في كتابه "تاريخ الفكر المعاصر في تركيا":

"ان موئيز كوهين خصص كتابيه "الكمالية" و "الروح التركية" لعهد أتاتورك، الأول. عهد الأجداد. ويرى المؤلف ان الروح القومية التي استيقظت نتيجة انقلاب الاتحاد والترقي واعلان المشروطية قد بدأت في الظهور في اطار الاسلامية والعثمانية.

أما عهد كمال أتاتورك فهو عهد الروح القومية الأصيلة التي وجدت التعبير عن نفسها في كل من اتاتورك وعصمت اينونو"[3].

مات -موئيز كوهين- في 27 سبتمر /أيلول عام 1961.

اذن فهذه هي حقيقة داعية الطورانية....

فاذا عرفنا هذه الحقائق فهل يستطيع أي عاقل ألاّ ينتبه الى كون فكرة القومية التركية - الطورانية- دسيسة من دسائس الاعداء ومؤامرة يهودية لتمزيق شمل هذه الأمة الاسلامية؟ فدلاهم على دار الخراب

والآن لنرَ من هو صديقه الحميم الداعية الثاني لهذه الفكرة،.

لنرَ من هو "ضيا كوك آلب".

يقول الاستاذ عباس محمود العقاد في كتابه "بين الكتب والناس-"تحت مقالة عنوانه: "الحركة الطورانية":

"... ومن هنا أيضاً تبدأ العوامل المدسوسة عن قصد وتدبير وعلى غير قصد ولا تدبير. فقد كانت مدينة "سالونيك" كعبة الدعوة الطورانية أو كعبة المدرسة الفلسفية التي تبشر بها وتلتمس لها الذرائع من العلم واللغة والتاريخ.

وفي سالونيك هذه كان يقيم "كوك آلب" فيلسوف الحركة ومبشرها الأكبر في القرن العشرين.

و "كوك آلب" هذا رجل غير موثوق من نسبه التركي، ولم يكن من المولودين في البلاد التركية"...

"وكان يقول ان اللغة والثقافة والشعور هي عناصر لقومية، وليست علاقة النسب والميلاد، وكان اكثر من هذا وذاك تلميذاً للعالم الاجتماعي الاسرائيلي "دركيم" وان لم يحضر دروسه

في فرنسا. و"دركيم" هذا كما يعرفه المتعقبون لمساعي الصهيونيين في ميدان الثقافة هو رسول الماركسية في ميدان العلم الاجتماعي، وهو الذي تكفل بنقل آراء كارل ماركس من مباحث الاقتصاد والسياسة الى مباحث الاجتماع والاخلاق، وكانت خلاصة مذهبه ان الفرد لا قيمة له ولا معنى لتشبثه بالحرية الفردية، وانما القيمة كلها للمجتمع الذي يخلق الأديان والعقائد والأداب والقيم الروحية وكلها عبث لا قيمة له مالم تكن نظاماً من نظم الاجتماع.

ولقد كان دركيم يعلم ان انكار الحرية الفردية في أمم الغرب الديمقرطي كلام لا يجد من يصغي اليه ولا يظفر من أحرار الفكر بالموافقة والقبول، فوضع كلمة "الشخصية" في موضع الفردية، وزعم ان هذا الذي سماه "الشخصية" لا يناقض النتيجة التي يؤدي اليها مذهبه، وهي فناء الأفراد في المجتمعات.

ولسنا نستلزم ان يكون المفكرون الطورانيون الذين تلقوا ثقافتهم بـ "سالونيك" مدسوسين على الحركة عن قصد منهم ورغبة في خدمة سياسة غير سياستهم، ولكننا نعلم ان سالونيك مدينة يغلب عليها الصيهونيون واتباع -شبتاي زيفي الذين دخلوا في دين الاسلام وبقوا على عزلتهم الدينية باسم "الدونمة" ليعملوا في البيئة التركية غير متهمين ولا محذورين. فمن المستحيل ان يكون هذا شأن المدينة وبيئتها الثقافية، ثم يظهر فيها فيلسوف يتتلمذ على العالم الاجتماعي الاسرائيلي دون غيره، ثم يقال ان الصهيونية لم تعمل شيئاً في هذا الاتجاه يقبله الماضون فيه كما اسلفنا عن قصد وتدبير أو بغير قصد ولا تدبير"[4].

اذن فلم يغب عن عيني المفكر العملاق عباس محمود العقاد الشبهات والشكوك العديدة التي كانت تحيط بهذه الشخصية.

وكان يلي هؤلاء في الأهمية اشخاص مريبون أيضاً وفدوا من روسيا العدو اللدود للدولة العثمانية، كان منهم "يوسف أقجورة" و "أحمد آغاييف" هيأتهم المخابرات الروسية ثم أرسلوا الى تركيا بعد عزل السلطان عبد الحميد ومجيء جماعة مريبة مثل جماعة الاتحاد والترقي.

فَمن كان يوسف اقجورة؟.

"من نواحي قازان على الفولغا في روسيا، ومن أتراك روسيا، درس أولاً في جامعة لورونبودغ في روسيا، ثم واصل الدراسة بمدرسة العلوم السياسية في پاريس ثم جاء بعد

الانقلاب الدستوري الى الاستانة وانغمس في العمل السياسي مع أتراك تركيا الفتاة. كان من أرائه ان تتخلى الدولة عن البلاد العربية لتشكيل دولة قومية في الأناضول".

تأمل سياسة التخريب والتفرقة تحت ستار من الغيرة والقومية.

ومن كان أحمد آغاييف؟

"هو أيضاً من أتراك روسيا -تركستان- جاء الى الاستانة بعد إعلان الدستور وتخلى عن جنسيته الأصلية وتجنس بالجنسية العثمانية وبدّل اسمه من اغاييف وجعله "أحمد آغا أوغلي"... وأصبح مدرساً للتاريخ التركي في المدرسة الحربية.. كان من غلاة الدعاة للجامعة الطورانية ومن أكبر مسببي الخلاف بين الترك والعرب".

"وأسس القوميون الروسيو الأصيل في ديسمبر سنة 1921 مجلة الوطن التركي "ترك يوردي" الاسبوعية وقد انطلقت الحركة القومية من أتراك روسيا النازحين الى الاستانة الذين كانوا قد نفوا في عهد عبد الحميد، واقامت لهم الثورة فرصة العودة والعمل لأفكارهم القومية..

اذن فليست بريطانيا وحدها هي التي لديها مخابرات، وليست بريطانيا وحدها هي التي اخترعت حكاية لورانس والحاج عبدا الله جون فيلبي"[5].

هذه هي الخلفية التاريخية والفكرية والسياسية لظهور الطورانية.

أورخان محمد علي - أسطنبول

---

[1]- أنظر : " القومية والغزو الفكري" بقلم جلال كشك. ص 297

[2]- المصدر السابق.ص. 263- 264

[3]- "موئيز كوهين:يهودي عثماني من قادة الطورانية".د.محمد حرب. مجلة العربي ص87-90 عدد أيار/مايو 1982م.

وأكثر المقاطع مأخوذة بنصها.

[4]- "بين الكتب والناس" عباس محمود العقاد. ص.65-67.

[5]- "القومية والغزو الفكري" ص.265.